

انتهاء المقاطعة:

يقول عروة بن الزبير أنه لما كان ثلاث سنين على المقاطعة "تلاوم رجال من بني عبد مناف ورجال من بني قصي ورجال ممن سواهم، وذكروا الذي وقعوا فيه من القطيعة، فأجمعوا أمرهم في ليلتهم على نقض ما تعاقدوا عليه والبراءة منه"⁽³⁾.

ويقدم لنا ابن إسحاق صورة حية عن الحوارات التي جرت بين بعض هؤلاء الرجال وهم يتحركون من أجل إيجاد تكتل يعمل على نقض صحيفة المقاطعة، فذكر أن هشام بن عمرو "مشى إلى زهير بن أبي أمية فقال له: قد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء، وأخوالك حيث قد علمت؟ لا يباعون ولا يبتاع منهم، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم، ولا يأمنون ولا يؤمن عليهم. أما إنني أحلف بالله، لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبدًا. قال: ويحك، فما أصنع؟ أنا رجل واحد، فقال: قد وجدت ثانيًا. قال: ومن هو؟ قال: أنا أقوم معك، فقال له زهير: ابغنا ثالثًا. فذهب إلى المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، فقال له: يا مطعم، قد رضيت أن تهلك بطن من بني عبد مناف وأنت شاهد

على ذلك موافق عليه؟ أما والله، لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها سراعاً منكم" (1). وهكذا استمر هؤلاء الرجال في التحرك حتى كسبوا إلى جانبهم إضافة إلى من تقدم ذكرهم كلا من أبي البخترى بن هشام، وزمعه بن الأسود بن المطلب بن أسد "فتواعدوا عند حطم الحجون ليلاً بأعلى مكة فاجتمعوا هناك، وأجمعوا أمرهم، وتعاهدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها. فقال زهير: أنا أبدؤكم فأكون أولكم، فلما أصبحوا غدوا على أمنيتهم وغدا زهير بن أبي أمية في حلة له فطاف بالبيت سبعاً، ثم أقبل على الناس" (2)، فعرض عليهم جوانب الظلم التي تضمنتها الصحيفة، وطالب بتمزيقها، فتصدى لمعارضته أبو جهل بقوة، إلا أن بقية الرجال الذين كانوا مع زهير قاموا في وجه أبي جهل وأيدوا زهيراً في مطلبه، وقالوا بأنهم لم يرضوا عنه وهذه الصحيفة حين كتبت عند ذلك أسقط في يد أبي جهل وعرف ألا جدوى من المعارضة، لأن الأمر متفق عليه، فاستسلم قائلاً: "هذا أمر قضي بليل" (3).

إن رواية ابن إسحاق الأنفة الذكر تشير إلى أن الصحيفة قد تم نقضها من خلال إيجاد رأي عام معارض، ومن دون اللجوء إلى قوة السلاح أو التهديد باستخدامه. غير أن ابن سعد يورد رواية تشير إلى أن القوة كانت هي الحكم الفصل في هذه المسألة. فيقول أن رجالاً من قريش تلاوموا على ما صنعوا فيهم الرجال الخمسة الواردة أسماؤهم أعلاه "ولبسوا السلاح ثم خرجوا إلى بني هاشم وبني المطلب، فأمرهم بالخروج إلى مساكنهم، ففعلوا، فلما رأت قريشاً ذلك سقط في أيديهم وعرفوا أن لن يسلموهم" (4).

فنحن هنا أمام تكتل يضم بني هاشم وبني المطلب بالإضافة إلى كافة الرافضين لصحيفة المقاطعة وأن هذا التكتل على استعداد لاستخدام السلاح من أجل كسر المقاطعة. لذا فإن أبا جهل ومن كان يؤيده أحسوا بالضعف والتخاذل فاستسلموا أمام التهديد.

وإن مما يؤيد رواية ابن سعد، أن ابن إسحاق ذكر في روايته أن أبا طالب كان جالساً في ناحية المسجد ليرى ما يصنع القوم حينما جاؤوا لنقض الصحيفة (5).

مما يدل على أن ابن إسحاق يتفق مع ابن سعد على أن بني هاشم كانوا قد أخرجوا من الشعب من قبل دعاة نقض المقاطعة وإن كانت روايته لم تذكر هذه التفاصيل.

لقد ذكر ابن إسحاق أنه حينما تقرر نقض الصحيفة، قام المطعم بن عدي "إلى الصحيفة فشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا باسمك اللهم"⁽¹⁾. بينما ذكر عروة بن الزبير، وكذلك موسى بن عقبة أن الصحيفة كانت معلقة في سقف الكعبة، "وكان فيها عهد الله وميثاقه، فلم تترك شيئاً إلا لحسته، وبقي فيها ما كان من شرك أو ظلم أو بغي"⁽²⁾.

إن الجمع بين الروايات المتقدمة يشير إلى اتفاقها على أن الصحيفة كانت قد تآكلت بفعل حشرة الأرضة على الرغم من اختلافها في تحديد الأجزاء التي تآكلت وانمحت منها. ثم جاء التصميم والفعل الإنساني الذي أفرزه صمود بني هاشم وبني المطلب إلى جانب الرسول ﷺ ليحسم الأمر وينهي صحيفة المقاطعة وما حوته من ظلم وعدوان. لقد استمرت المقاطعة كما تؤكد أغلب الروايات حوالي ثلاث سنوات، لاقى فيها بنو هاشم وبنو المطلب مسلمهم وكافرهم شتى صنوف الأذى والاضطهاد، وجاءت النهاية وخرجوا من شعبهم، وقد فشلت المقاطعة، وتفرقت وحدة خصومهم، وكان ذلك في حدود سنة 10 للبعثة الموافق لسنة 619م. فهل كان ذلك إيذاناً ببداية عهد من الانفراج والتسامح مع الدعوة أم بداية لحلقة جديدة من حلقات الصراع بين الرسول ﷺ وبين زعماء المشركين في مكة.